أبو القاسم سعد الله
بين ازدواجية التأليف والترجمة.

أ.د.حنيفي هلايلي*

لقد اهتمت العديد من الجامعات والمراكز البحثية في الفترة المعاصرة، بتكريم علمائها وأساتذتها من خلال إقامة الندوات العلمية والتظاهرات الثقافية بغرض التعريف بخدماتهم الجليلة وإسهاماتهم في حقول المعرفة الانسانية، ومن أهم المراكز البحثية العربية التي تهتم بهذا المجال، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، والتي أصدرت العشرات من الكتب التكريمية لرجال الفكر والتاريخ، وقد تضمنت هذه الكتب إسهامات باحثين ودارسين للتاريخ في شتى التخصصات حيث ركزوا في نشاطاتهم العلمية والبحثية على هؤلاء الأعلام، ونخص بالذكر:

خليل الساحلي أوغلو: الدراسات والوثائق العثمانية.

لوي كارديك: التاريخ الموريسكي.

شارل روبير أجرون: تاريخ الجزائر المعاصر.

لوث لوبات بارلت: الدراسات الالخميادية والموريسكية.

عندما نتفحَّصُ كتابات وأفكار أبو القاسم سعد الله، ونستحضر السياق الثقافي المعرفي، والسياسي والاجتماعي الذي انبثقت فيه هذه الأفكار وتفاعلت مع أحداثه وملابساته، نُدرك بحق قيمة أفكار هذا العالم المؤرخ الفذ، لقد حمل أبو القاسم سعد الله عبر مراحل حياته عبء دراسة تاريخ الجزائر (أمته) وكتابته وتدريسه وسيلة البحث والاستقصاء، وغايته الحقيقة والمعرفة في إطار من الموضوعية والمنهجية؛ فكانت كتاباته التي وضع فيها خلاصة فكره وتجربته الفنية معينا لا ينضب ومصدراً لا بد لدارس تاريخنا العربي الإسلامي من الرجوع إليه، ولم يقتصر فيها على دراسة جانب واحد من جوانب هذا التاريخ بل تناول جميع هذه الجوانب برؤية شاملة وفكر مبدع واستقراء رصين، متوجا ذلك بخلق رفيع يدركه كل من كان له حظوة التعامل معه.

* أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس.

بيد أن سعد الله كان خصب الإنتاج متعدد الجوانب في إطار التاريخ العربي الإسلامي عامة وتاريخ الجزائر خاصة. امتاز أسلوب سعد الله بالدقة واختيار الألفاظ، وجاء مركزا ودقيقا حرصا على وقت القارئ واحتراما لعقله وتفكيره، فسعد الله في أبحاثه يضع الخطوط العريضة والرئيسية للموضوع دون أن يسوق نظرية ما، بيد أن وضعه القوي لهذه الخطوط تقضي بالضرورة إلى مجموعة من الآراء تظهر صوب هذا التحليل وعمقه.

وتبقى نظرة سعد الله في كل أعماله التاريخية بأن التاريخ مجرى متصل، إذا أريد أن يسهم التاريخ في توضيح رؤى المستقبل واستشعاره؛ فالتاريخ في نظر سعد الله: "موضوع حي يقوم بدور بليغ في الثقافة، وفي التكوين الاجتماعي والخلقي، وله أثره في فهم الأوضاع القائمة وفي تقدير الاتجاهات والتطورات المقبلة...، والتاريخ يتأثر بالتيارات الفكرية وبالتطورات العامة، ولذا كثرت النظريات في تفسيره".

ويشير سعد الله في جميع أبحاثه بأننا بحاجة ماسة لأن ننطلق من الحاضر وهمومه وتطلعاته إلى الماضي إن أردنا أن يكون للتاريخ معنى، وإن أردنا أن نفهم الحاضر بصورة أفضل. لقد أقلق أبو القاسم سعد الله مسألة دور المؤرخ الجزائري، وعمل المؤرخ والمسؤوليات الملقاة عليه، وثم كيف يدرس تاريخنا؟ وكيف نوظف هذا التاريخ في سبيل نهضتنا من جديد؟ وفي سبيل بعث الأمة الجزائرية، وفي سبيل تماسكها وديمومتها نحو مستقبل مشرق.

لقد دخل سعد الله الحياة الثقافية أديبا لينتهي به الأمر مؤرخا، فاستهل حياته بمعالجة الشعر وطبعها بدراسة الأدب ووسعها بكتابة التاريخ وعمقها بالترجمة وطرح الأفكار الحرة. تحاول هذه الورقة أن تبرز إسهامات الأستاذ أبو القاسم سعد لله في كتابة تاريخ الجزائر العثمانية من خلال محطتين، الأولى تتضمن الجانب الثقافي، وسوف نسلط الضوء على تهميش العلماء في العصر العثماني نموذج عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، والمحطة الثانية تشمل مجال الترجمة لكتاب جون وولف حول: الجزائر، أوروبا والبحر.

أولا: مجال التأليف: اهتم الأستاذ أبو القاسم سعد الله بالإسهام العلمي والإنتاج المعرفي لتاريخ الجزائر الذي كلله بمعلمه "تاريخ الجزائر الثقافي"، وقد أثار عدة إشكاليات لا يمكن للقارىء الذكي أن يتجاوزها ولا يحق للباحث المدقق التقليل من أهميتها، فقد كتب يقول عن الموسوعة الثقافية الجزائرية: "وكان الهدف هو إنتاج عمل يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الاسلامية

والإنسانية عبر العصور، ذلك أن رواد المدرسة الاستعمارية الفرنسية قد بثوا طيلة احتلالهم للجزائر بأنه لم يكن للجزائر ماض سياسي ولا ثقافي"[1].

كثير ما يطرح السؤال التالي: هل كانت للدولة العثمانية سياسة تعليمية في الجزائر؟ إن الدارس للجانب الثقافي من تاريخ الجزائر العثمانية لا يجد ما يشير إلى ذلك، لأن التعليم في هذه الفترة ارتبط بالأفراد والعائلات والمؤسسات الخيرة الحرة[2]، بينما ظل دور الدولة العثمانية هامشيا، إذ لم يكن لها أي دخل ولا إشراف على هذا الميدان التربوي.

وتظهر سلبية الوجود العثماني في الجزائر في الميدان الثقافي على الخصوص؛ فالعثمانيون قد حافظوا في البداية على الدين الاسلامي، وشجعوا تيار التصوف في البلاد، وأوقفوا بعض الأحباس على المؤسسات الدينية، وساهموا في بناء الزوايا والمساجد، فكأن نظرتهم إلى الدين كانت نظرة تعبدية، فهم لم يؤسسوا جامعة كالقرويين أو الزيتونة أو الأزهر تبث العلم وتخرج العلماء والكتاب وتحفظ اللغة وتربي العقل[3].

وقد عبر الأستاذ أبو القاسم سعد الله عن ذلك بقوله: "كان حكام الجزائر الأتراك في معظم الأحيان جهلة لا يعرفون حتى القراءة والكتابة...، ثم إنهم كانوا يحكمون الجزائريين بيد من حديد، ويسلبونهم أموالهم وثرواتهم عن طريق الضرائب والرشوة والهدايا...، وقد مكنوا طائفة اليهود في الاقتصاد، وكانوا يفضلون الأسيرة المسيحية على المرأة الجزائرية..."[4].

وإذا كانت الدولة العثمانية لم تول اهتماما وعناية بشؤون التعليم والتربية فهي من جهة أخرى لم تعمل على عرقلة ومحاربة التعليم الخاص الذي انتشر انتشارا واسعا، ويمكن أن نسمي موقفها هذا ازاء التعليم بالحياد الايجابي.

إن مضمون معلمة تاريخ الجزائر الثقافي الخاص بالعهد العثماني يحتوى على جزأين، الجزء الأول منه اشتملت فصوله الخمسة على تراث القرن التاسع عشر الهجري، الخامس عشر الميلادي والتيارات الفكرية التي عرفتها والمؤثرات المتحكمة فيه بالإضافة إلى ما تميز به من المؤسسات الثقافية منها وواقع التعليم ورجاله وموقف العلماء والمرابطين، أما الجزء الثاني بفصوله الستة فتعرض إلى واقع العلوم الشرعية وكتب النوازل والفتاوى والفرائض وعلوم اللغة والشعر والنثر الفني والتاريخ والتراجم والرحلات والفنون.

لقد أرجع الأستاذ أبو القاسم سعد الله محدودية العطاء الثقافي الجزائري التي أسبغت الحياة الفكرية خلال الفترة العثمانية طابع الجمود، ويعود ذلك إلى طبيعة الإدراة ونوعية الحكم ومواقف الحكام وإلى تأثيرات الفوضى السياسية والاضطرابات الاجتماعية فاظهر نقمته على الحكام في العهد العثماني لبعدهم عن الثقافة وإهمالهم الصفوة المتعلمة من الأمة، وهو ما عبر عنه "إ ظاهرة الجمود الثقافي كانت بارزة في العهد العثماني الذي درسناه وهو ليس خاصا بالجزائر ولو كانت الثقافة في بقية العالم الإسلامي نشطة لاستفاد منها الجزائريون أيضا"[5].

وعلق الأستاذ ناصر الدين سعيدوني على هذا الحكم بأنه يمثل تطورا نوعياً في نظرة سعد الله لقضايا التاريخ، فكان لمن يؤاخذ سعد الله على التزامه العربي وميوله الاسلامية، قفزة نوعية وتحولا جذريا، كما أن هذا الموقف لا يفهم خارج التقييم الإجمالي لحصيلة الإنتاج الثقافي المحدود، ومكانة المتعلمين المتواضعة في جميع جوانب الحياة في الجزائر العثمانية[6].

وللوقوف على الهموم التي كبلت رجال العلم في الجزائر العثمانية وبالمهمشين من ذوي الثقافة شأنهم شأن فئة التجار الكبار والملاكين الجزائرين الذين لم يكن بإمكانهم احتلال مناصب هامة في ظل هيمنة الأتراك العثمانيين ومنافسة الكراغلة.

فهذا عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش الجزائري (1695– أواخر القرن 18م). وهو من الأشراف ينتمي لعائلة من التجار والحرفيين الصغار كان قد أحترف العلم، فكان نصيبه منه حياة الضيق والفقر والتهميش. عاش حياة مليئة بالفقر والضيق، وحاول الجمع بين العلم والتجارة فلم يحالفه النجاح، لأنه كما قال كان لا يفارق الكتب[7]. لقد صور في رحلته المسماة "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" المعروفة ايجازا برحلة ابن حمادوش الجزائري حاله وحال أمثاله ممن لم يرق بهم العلم إلى ما كانوا يصبون إليه، والذين اضطرهم ضيق الحال إلى الهجرة لاستزادة من العلم وطلب الرزق عن طريق التجارة وامتهان الطب التقليدي.

وبالرغم من كثرة أسفاره إلى المشرق والمغرب الاقصى وعلاقاته بحكام المناطق التي زارها وبعلمائها الذين أجازه بعضهم اعترافا بعلمه وفضله، ظل ابن حمادوش مجهولا شأنه شأن العامة من سكان الجزائر الذين شملهم الإهمال والاستخفاف من جانب من أسماهم ريمون: "كتاب الحوليات الذين ينتمون الى البرجوازية الحضرية [8].

وإذا استثنينا الفئة المتميزة من العلماء الذين غالبا ما يلجأ الحكام لخدماتهم كقضاة ومفتين مع ما لهم من دور في إضفاء الشرعية عليهم وخدمتهم والاستفادة منهم. وهم من حيث العدد قليلون، فإن الغالبية العظمى من المتعلمين المجازين في علوم الدين ممن يمتهنون التعليم إما بالمدارس والمساجد أو الكتاتيب أو ممن يمتهنون الامامة بالمساجد ويقومون بخدمتها هم أكثر عددا.

فقد أجرى بابر جوهانسون (baber johansen) دراسة عن مجموع العاملين في المساجد بالجزائر قبل 1830م، من حيث أبسط الخدم، فتوصل إلى أن عددهم بلغ 3700 شخصا، وأغلب أفراد هذه الفئة المتعلمة هم من العائلات الحرفية والتجار الصغار، وهي أقرب من الفقر إلى الغنى[9].

وحسب ما ذهب إليه أبو القاسم سعد الله، الذي حقق رحلته آنفة الذكر وخصص كتابا للتعريف به، فإن المترجمين المعاصرين له أو الذين جاءوا من بعده لم يعبؤوا به لأنه لم يكن من مشاهير الأدباء والمتصوفين والمداحين. وأكثر من هذا "لم يتقلد مناصب إدارية ولا مناصب دينية كالفتوى والقضاء والتدريس الرسمي ولم يتقرب إلى الولاة والوزراء"[10].

ويبدو أن الرجل رغم ضيق حاله، وجد اهتماما للعلم متحديا بذلك كل الصعوبات المادية والمضايقات العائلية. فكتب عدة مؤلفات في العلوم الطبية والرياضية، ومجموعة كتب أخرى هي: كشف الرموز وتعديل المزاج ومؤلفين في المنطق والتوحيد[11].

تحتوى رحلة ابن حمادوش "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" على معلومات في غاية الأهمية عن ظروف الحياة الصعبة التي عاشها هذا العالم والتي جعلته يصل إلى أدنى دركات التهميش في مدينة الجزائر، فقد سافر إلى المغرب مبتغيا التجارة ومؤملا في تحسين أوضاعه العائلية المتردية. وقد علل سبب رحلته بأنها حب الدنيا وكيد النساء، كما جاء في بعض أبيات قصيدة له:

كرها، وما أنا لديكم بالفخور لكن للدنيـــا يقودني الغرور
وحبها فيما علمتم كالفجور لأجلها ركب الأحمق البحور
لكن إبليس استعان بالنســـا لما رأى كيده خاب في عسى
فنال مـــا يبغي مـــن الرجال بشبكة النســـا مـــن الأمالي

والظاهر من خلال هذه الأبيات ومن خلال الأخبار الواردة في نفس الرحلة فإن حالة الفقر التي كان يعاني منها في الجزائر هي التي أجبرته على السفر إلى المغرب طلبا للرزق من خلال

التجارة، وكما هو شأن العلماء دائما استغل رحلته تلك للاستزادة من العلم ولقاء العلماء وأخذ الإجازات منهم، وأثناء عودته من تطوان بعد زيارته لمكناس ثم فاس اشترى بعض الأثواب "ملف وقشينية"، وأثناء استعداده لركوب البحر على متن سفينة فرنسية من نوع بولاكر، كان قد أكتراها تاجر يُدعى ابن طالب الجزائري، حاول صاحبنا التهرب من أداء المكس في مرسى تطوان، وراسل أحد علماء تطوان الشيخ سيدي أحمد الورزازي ليتدخل لدى السلطات الجمركية من أجل اعفائه من دفع الرسوم.

وجاء في الرسالة التي كتبها إليه: "...إن هذا اجتمعت فيه ثلاث خلال واحدة منها لو انفردت لأوجبت عليك أن لا تتعرض له في شيء: الأولى النسب، رجل شريف من آل النبوة، الثانية أنه رجل عالم، الثالثة، قلة ذات اليد، فعفا عني وسامحني، بعد أن طلب مني أن أحصي له ما عندي"، وقد استغل بعض معارفه أيضا بعد وصوله إلى الجزائر بهدف التهرب من دفع رسوم الجمرك، ونجح في ذلك"[12].

ويبدو أن صاحبنا لم يلق بعد عودته إلى الجزائر ما كان ينتظره من حسن استقبال أهله وذويه له رغم عدم عودته بدون المال الوفير الذي كان يحلم به، وكتب عن نفسه قائلا: "وكنت تعبت في السنة الماضية في المغرب من مرض وخسارة وضيق. ولم أرى قط ما رأيت فيه من ضيق العيش والخسارة، والعياذ بالله، حتى أيقنت الهلاك، فقدمت ووجدت من الزوجة مثل ذلك، ولم أرها فرحت بقدومي، لأنها أيقنت أن أكثر المال ضاع لي فلم يبق لها غرض في، ولم تر ما عندي من العلم...". وعاد ابن حمادوش لحياته العادية ففتح دكانه وبعد مدة كتب "وفي هذه الأيام بعت الملف، والحمد لله، وتوسع حالي"[13].

كان ابن حمادوش مثالا للعلماء العاملين من أهل الجزائر الذين فضلوا حياة الظل في الهامش، على التذلل والتقرب من جماعة الأتراك المهيمنين على كل شيء. وحتى عندما تحركت قريحته أثناء وجوده بالمغرب، حيث نظم قصيدتين إعجابا منه بالسلطان عبد الله (1728–1757م) لم يكن يبتغي من ورائها شيئا، فاكتفى بإيرادها ضمن رحلته.

وقد علق على ذلك بقوله: "فكان فضل الله علي أن لم أجعل علمي سلما للدنيا، ولم أنل به شيئا، ولم أمدح أحدا لطمع، ولا مدحت سلطانا قط غير هاتين القصيدتين، حملني الأدب، ولم أتكلف لوصولهما؛ فخلدتهما في ديوان الأدب، ولم يرهما (يعني السلطان).."[14].

وقد نظم القصيدة الأولى سنة 1145هـ/1732م، والثانية سنة 1156هـ/1741م، وأراد الدخول على السلطان بهما، ولكن الحجاب- حسب أبو القاسم سعد الله- إما منعوه أو كانوا غلاظا معه فأمسك بالقصيدتين عنده، فقال عن المرة الأولى "أغناني الله عن لقياه"، وعن الثانية "لما رأيت غلظ حجابه مسكتها عندي"[15].

ثانيا: مجال الترجمة: يعد كتاب الجزائر وأوربا للمؤرخ الأمريكي جون ولف(John.B.Wolf) من أهم ما أنتجه الأستاذ أبو القاسم سعد الله في مجال الترجمة التاريخية[16]، لما نال من ذيوع صيت لدى القارئ الجزائري لأنه يتناول تاريخ الجزائر العثمانية لأحداث القرون الثلاثة (16-19م).

والغريب أن مؤلف هذا الكتاب عالج العلاقات الأوروبية الجزائرية في حجمها الدولي، وفي محتواها الاقتصادي والسياسي، بينما عالج المؤرخون الآخرون هذا الموضوع في الغالب معالجة دينية أو وطنية ضيقة، كما أوضح دور المنافسة الأوروبية وأثرها في العلاقات الجزائرية، وأبرز دور هذا التنافس على التجارة والتكتل العسكري والمكانة الاستراتيجية، ولا سيما بين فرنسا وبريطانيا وهولندا.

وتحدث المؤلف أيضا على الدور المتعاظم لليهود في الإقتصاد الجزائري بل في السياسة الخارجية الجزائرية وقتذاك. إن تركيز جون وولف على التجربة الجزائرية من خلال التجربة الأوروبية هو الذي جعل الأستاذ أبو القاسم سعد الله يغير عنوان الكتاب من ساحل الشمال الإفريقي: الجزائر تحت الأتراك (The Barbary Coast: Algeria Under The Turks) إلى الجزائر وأوروبا 1500-1830[17]، وقد عبر سعد الله عن ذلك بقوله: "وجدت كتاب وولف عن الجزائر في العهد العثماني يتحدى الجزائريين في أكثر من موضع"[18].

ففي مجال الترجمة، سنستعرض بإيجاز محتوى الكتاب وقيمته العلمية وضبط القواعد الأساسية للترجمة ومدى التزام سعد الله بشروطها، وفيما يخص الملاحظات والانتقادات التي أوردها ضمن هذا المؤلف التاريخي.

1- أسلوب الترجمة: تمكن الأستاذ سعد الله من نقل عبارات وألفاظ مناسبة تمكن القارئ من فهمها ثم قراءتها دون صعوبة، واتبع أسلوب وفن الترجمة بمقدار محيطه العلمي والثقافي مع التركيز على أسس ومبادئ أهمها:

أ- إن المترجم كان متقنا للغتين المنقول إليها (اللغة العربية) والمنقول منها (اللغة الانجليزية)، وهو بالتالي تمكن من إيجاد الكثير من المصطلحات بالرغم من أن المؤلف استعملها بكل حرية وبدون انتظام مثل الجزائر والمغرب وشمال إفريقيا، بربرية، البربر، العرب، الأهالي، القبائل، "أسر جماعة من الأتراك الجزائريين والمور (الجزائريين)"[19]، "ولكن هذه الحملات قد أصبحت بنهاية القرن السابع عشر وخلال القرن الثامن عشر أكثر صعوبة لأن القبائل الأهلية (السكان) كانو يملكون الأسلحة النارية"[20]، كما أن المؤلف لا يفرق بين قبائل زواوة والقبائل البربرية إذ يقول ما نصه: "في المدينة وأيضا من جانب رجال القبائل البدو في الريف"[21].

ونظرا لصعوبة التحكم في مثل هذه المصطلحات وقع المترجم في متاهات المعنى التاريخي لبعض الألفاظ فمثلا المودخار (Mudejar) بالإسبانية تعني المدجنين والأندلسيين الفارين إلى الجزائر نعتتهم السلطات الاسبانية زمنئذ بالموريسك (Moriscos)[22].

كما نبّه المترجم إلى صعوبة ترجمة المصطلحات البحرية التي ورد ذكرها بكثرة في النص الأصلي، والجدير بالملاحظة أن المترجم قام بتصحيح العديد من الأسماء العربية الإسلامية بالإضافة إلى تصويب بعض الأخطاء التاريخية، نذكر منها على سبيل المثال: "فكان أن اغتيل بوشناق سنة 1805م وهو يغادر القصر، وسار الداي حسن بالاعتراف بأن العمل الذي قام به القاتل كان في صالح الدولة"[23]، والداي هنا هو مصطفى باشا (1798-1805م).

وورد في الكتاب أيضا: "وحصلت (فرنسا) على تأييد سلطان تركيا"[24]، والتعبير التاريخي هو السلطان العثماني، وفي فقرة أخرى ذكر جون وولف "أن الدي شعبان حكم سنة 1794م"، والتاريخ المقصود هو سنة 1694م، "وهي الضريبة التي أصبحت إجبارية بمرسوم من الداي شعبان سنة 1794" [25].

وبخصوص الطبقة الحاكمة فالمؤلف يشير إلى الجزائريين كشعب وليس الأتراك ممثلي السلطة الحقيقية، "وقد أسر الداي للقنصل الانجليزي سنة 1732 بأن الجزائريين عبارة عن جماعة من المتشردين وأنا قبطانهم"[26].

ومما يلاحظ على المترجم أنه وضع ثبتا عاما على النسق العربي حتى يسهل على القارئ معرفة الاعلام وأسماء الأماكن والقبائل والدول، وهو عمل جدير بالاهتمام في أعمال الترجمة.

أ- كان المترجم عارفا بالموضوع الذي يترجمه: فمن حيث الخطة، لاحظ المترجم أن المؤلف أخضع تاريخ الجزائر خلال الفترة العثمانية إلى تطورات الأحداث الأوروبية حيث تضمنت خطة الكتاب ستة عشر فصلا من الفتح العثماني للجزائر ثم الصراع العثماني الاسباني تليه فترة حكم البيلربايات، العلاقات مع أوروبا 1600–1714، الإيالة الجزائرية وأوربا من 1630– 1688م، الحرب العظمى 1688–1714م، فأوضاع الجزائر الاجتماعية (الرياس، الأوجاق) ثم حكومة الدايات. مع العلم أن كتابة تاريخ الجزائر العثمانية في مختلف المجالات تندرج في الأشكال الأربعة للأنظمة السياسية التي عرفتها، وهي:

مرحلة البيلربايات (1518– 1588م)

مرحلة الباشاوات (1587– 1654م)

مرحلة الآغوات (1659–1671م)

مرحلة الدايات (1671–1830م).

حينما تعرض المؤلف لحكومة الداي أكد على ظاهرة الاغتيالات التي طالت حكام الجزائر خلال القرن الثامن عشر، وأن الشعب الجزائري استسلم لمثل هذه الظروف والتي انتهت بنمو سلطة الداي كحاكم مطلق[27]، ومن هنا نبه المترجم إلى ضرورة أخذ الحيطة من هذا الاستنتاج الذي يعتبر امتدادا لأراء المدرسة التاريخية الفرنسية الاستعمارية حول تاريخ الجزائر العثمانية.

والجدول التالي يبين أهم الدايات الذين تعرضوا للاغتيال من طرف عناصر الجيش الانكشاري[28]:

الداي	فترة الحكم	طريقة الاغتيال
بابا حسن	1682– 1683	أعدم من طرف عناصر الانكشارية
الحاج شعبان	1688– 1695	اعدم خنقا بعد تعذيب شديد
الحاج مصطفى	1700– 1705	أعدم خنقا
محمد بكداش	1707– 1710	اعدم خنقا
دالي ابراهيم	1710	قتل في الساحة بعد رميه بقنبلة من أعلى القصر
ابراهيم كوتشوك	1745– 1748	قتل مسموما
محمد بن بكير	1748– 1754	قتل خنقا في قصر الجنينة
مصطفى باشا	1798– 1805	قتل بالذبح
احمد باشا	1805– 1808	قتل رميا بالرصاص

علي الفسال	1808– 1809	أجبر على شرب السم فرفض فخنق
حاج علي	1809– 1815	قتل خنقا في الحمام
محمد الخزناجي	1815	قتل خنقا في قصر الجنينة
عمر باشا	1815– 1817	نفذ فيه الحكم بالخنق

ب- كان المترجم عارفا بأسلوب المؤلف وتصوراته وغايته: نبّه المترجم القارئ العربي بصفة عامة والقارئ الجزائري بصفة خاصة إلى أن المؤرخ الامريكي جون وولف ما هو إلا امتداد للمدرسة الكاثوليكية الفرنسية الاستعمارية، وذلك أثناء دراسته للمجتمع الجزائري والإسلام؛ فهو يركز في دراسته للعلاقات بين الجزائر وأوروبا على المحاور التالية:

1- تمجيد العمل الاوروبي.

2- إضفاء الشرعية على تصرفات الساسة والأمراء والضباط الأوروبيين.

3- الحط من قيمة العمل الجزائري العثماني والتشكيك في قدراته وشرعيته وأهدافه.

4- يصّر على أن تصرفات الأوروبيين تخضع لقوانين وتقاليد هي من المسلمات التي توجبها ظروف الحرب والسلم والديبلوماسية والعلاقات الاجتماعية الدولية.

5- التصرف الجزائري العثماني يحركه الطمع وهبوط الضمير والميول الفردية، والتعصب الديني[29].

1- رغم لائكية المؤلف عند تبريره للهزائم الأوروبية أمام الجزائر، فإنه يذكر نفس المعاذير التي استند إليها رجال الكنيسة والعسكريون الأوروبيين، مثل الزلازل والرياح وهيجان البحر والعواصف والطاعون. إن مثل هذه التفاسير تتكرر باستمرار في كتاب وولف: "بقي الجيش الإسباني منتظرا أمام مدينة الجزائر (1541م) مدة أسبوع، عندئذ هبت عاصفة عنيفة رمت بستة وعشرين من مجموع الأربعين سفينة أسبانية على الصخور، وقضت على معظم تموينهم الذي كان يفتقر إلى المخبأ المناسب"[30].

وحتى تحرير وهران سنة 1791 يقول عنه: "ففي أوت سنة 1790 حدثت عدة زلازل مغيرة الحجم في النواحي المحيطة بوهران، وفي الثامن والتاسع من أكتوبر اهتزت الأرض أقوى هزات... إن وهران كانت أنقاضا، قتل الحاكم الاسباني وجميع أفراد عائلة، وكذلك قتل ثلاثة ضباط سامين

وواحد وثلاثين ضابطا، أما الناس العاديون والجنود فقد قتل منهم حوالي ألف...كان الباي محمد وقواده متأكدين من أن الزلزال كان من عمل الله الذي تدخل إلى جانبهم في النزاع[31].

2- تعصب الكاتب عند ما يصف العبادة في شهر رمضان بأنها تعصب إسلامي قد بلغ أقصى مداه، ويتساءل المترجم عما إذا كان هذا حكما دينيا أو حكما سياسيا؟: "ورجعت القضية إلى الظهور في الثلاثين من أبريل سنة 1827م. لقد كانت صدفة سيئة الحظ إذ حدثت في نهاية شهر رمضان، وهو الوقت الذي يصل فيه التعصب الإسلامي درجته القصوى"[32].

وتظهر النزعة العنصرية للمؤلف عندما يركز على أن معظم رياس البحر من الأعلاج هم من أصول أوروبية، فهم رجال متميزين، حيث يقول: "كان الرياس شخصيا مهتمين بقضايا الحرب والسلم...، وفي مدينة الجزائر كان الرياس أكثر شعبية من الجنود الانكشارية لأن تجربتهم الواسعة تعطيهم التجربة وبعد النظر"[33].

ويذهب المؤرخ الأمريكي وولف في حديثه عن المعارك التي يخوضها الأسطول الجزائري بأن الهدف كان النهب والغنيمة، مع العلم أن المسلمين كانت الشهادة والغنيمة بالنسبة لهما الدافعين الرئيسيين للجهاد[34].

3- استعمال المؤلف لبعض المفاهيم التي تحاول الحط من قيمة الجزائريين، حيث يدعي بأن الرايس علي بتشين كان يمنع الأعلام من اعتناق الاسلام ويستعمل العنف من أجل أغراض اقتصادية "أن هناك بعض الملاكين لم يحاولوا فقط إدخال أرقائهم في الدين الاسلامي، بل إنهم أجبروهم على البقاء مسيحيين...، وأشهر مثال على ذلك ما قام به بتشين"[35].

4- تقييد المترجم بالأصل فحافظ على الروح الكاملة للمعنى، ومما يثير الجدل في هذا السياق أن اعتبر المؤلف الأمريكي البحرية الجزائرية طول الفترة العثمانية مشروعا خاصا، ذلك أن السفن كانت مملوكة من قبل الرياس أو الأغنياء، أما الداي ورجال الديوان فتمثلت سيطرتهم في تنظيم مشاركتهم في فوائد الغنائم ومنح الرخص للإبحار وإجبار الرياس على احترام المعاهدات[36].

ونظرا لأهمية الأسلوب في الترجمة وفي الحياة الثقافية العربية، استدعت أن تكون موضع تقدير ونظر الأدباء والمفكرين العرب، ولعل من أبرز من نظر إلى ذلك هو أبو عثمان الجاحظ في كتاب الحيوان، حيث قال: "ولا بدّ للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه، في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول عليها، حتى يكون فيها سواء وغاية"[37].

ومما يلاحظه الدارس في كتاب الجزائر وأوروبا أن المترجم أبو القاسم سعد الله كان متعمقا في جميع خصائص اللغة العربية، ومتقنا للغة الأجنبية المترجمة، وكان أمينا في الترجمة والنقل ومحيطا بالأحداث

التاريخية التي تناولها المؤلف، كما وفق إلى حد كبير في نبش حقيقة المعنى المطلوب وإيجاد المصطلح الموافق، والتمحيص والتدقيق، إلى جانب قدرته على التنسيق والربط بين المعاني والجمل. يضاف إلى ذلك قدرته على التعبير عن معنى الكلمة الأعجمية بكلمة عربية مطابقة نصا وروحا؛ فكان سعد الله المترجم الحق الذي التزم بشروط أهلية المترجم في مواكبة مستوى لغة المترجم في الانشاء وانتقاء المفردات.

إن المؤرخ أبو القاسم سعد الله من خلال هذا الإبداع الفني والتاريخي يجعلنا نلامس فيه الايمان بالتواصل ما بين الأجيال لأنه يتمتع بفكر نير متفتح؛ فهو الكاتب والأديب والناقد والمترجم والمؤرخ، وغني عن القول أن أعمال الفقيد العلمية قد توفرت فيها كل صفات البحث الأكاديمي الأصيل، بما فيها من دقة وتوثيق وإخلاص للحقيقة، وتشخيص العلل وفهم أسباب الأزمات التي نعيشها كشعب وأمة.

الهوامش:

(1) أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط 1 بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1998، ج1، ص 13.

(2) من أشهر مؤسسات الوقف الجماعية التي كانت تهتم بالزوايا والمدارس والمساجد والأضرحة وتسهر على تقديم النفقات للموظفين السلك الديني والفقراء والطلبة: مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين، مؤسسة أوقاف الجامع الأعظم، مؤسسة أوقاف سبل الخيرات، مؤسسة أهل الأندلس، ومؤسسة أوقاف الأشراف للمزيد من التفاصيل راجع: ناصر الدين، سعيدوني: موظفو مؤسسة الأوقاف بالجزائر أواخر العهد العثماني، المجلة التاريخية المغربية، العدد 57- 58 تونس- ماي 1990، ص ص 175-192.--- (3) أبو القاسم، سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص18-19.--- (4) نفسه، ص 14-15.--- (5) نفسه، ج1، ص 13.

(6) ناصر الدين، سعيدوني:" أبو القاسم سعد الله: كاتبا ومفكرا، في كتاب دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، ط1، بيروت: دار الغرب الاسلامي، 2000، ص 503- 504.--- (7) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص 425.

(8) أندري، ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ترجمة: لطيف فرج، القاهرة: دار الفكر، 1991، ص74.-- (9) نفسه، ص63.--

(10) أبو القاسم، سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري: حياته وآثاره، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص18.

(11) يقول أبو القاسم عن كتاب الرحلة، بأنه كثير الحشو والاستطراد، ومع هذا فسيظل مصدرا لا غنى عنه لدراسة الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في المجتمع الجزائري والمغرب خلال القرن الثامن عشر. للمزيد انظر: أبو القاسم، سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط 2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص221-241.

(12) عبد الرزاق، ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، (تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983، ص 110-114.--- (13) نفسه، ص 115-118.

(14) نفسه، ص 117.--- (15) أبو القاسم، سعد الله/ تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 273-274.

(16) في مجال الترجمة من اللغة الانجليزية إلى العربية، ترجم سعد الله ما يلي: شعوب وقوميات (Peoples and Nationalisms)، الجزائر 1985/حياة الامير عبد القادر لشارل هنري تشرشل(The Life of Abdelkader)، ط 2، الجزائر – تونس 1982.

(17) جون بابتست، وولف، الجزائر وأوروبا 1500-1830_ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله) الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.) (Algiers Under the Turks--- (18) نفسه، ص 8.--- (19) المرجع نفسه، ص 262.--- (20) المرجع نفسه، ص 397.--

- (21) المرجع نفسه، ص 97.---- (22) المرجع نفسه، ص 182. للمزيد من التفصيل حول الموريسكيين انظر:

حنيفي هلايلي، الموريسكيون الاندلسيون في الجزائر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة وهران، 1999. 272ص.---- (23) جون وولف، المرجع السابق، ص 442.--- (24) نفسه، ص 440.---- (25) نفسه، ص234.

(26) نفسه، ص 121.--- (27) نفسه، ص 385.--- (28) تم استقاء هذه الإحداث من مختلف المصادر والمراجع.

(29) جون وولف، المرجع السابق، ص11-12.--- (30) نفسه، 33.--- (31) نفسه، 409-410.

(32) نفسه، 449.--- (33) نفسه، ص 133.--- (34) نفسه، ص .404.--- (35) نفسه، ص 225.

(36) نفسه، ص 191.--- (37) الجاحظ، الحيوان – تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة البابجي الحلبي، مصر، 1352هـ، ج 1، ص 75-76.